

ميشال فوكو و"أنطولوجيا الحاضر"

نورالدين الشابي
جامعة تونس

استهلال:

"أي معنى للاشتغال بالفلسفة اليوم؟" هكذا يتساءل ميشال فوكو في أحد النصوص التي تعود إلى سنة 1967¹. والحقيقة أنه إذا كان السؤال عن ماهية الفلسفة ملازماً لتاريخها فإن خصوصية السؤال الفوكوي تكمن في ربط التفكير في معنى الفلسفة بالواقع الراهن. حيث لا يتعلق الأمر بطرح سؤال "ما الفلسفة؟" وإنما بسؤال: "ما الذي يعنيه التفلسف اليوم؟". وهو سؤال يجيب عنه فوكو بتأكيد أن المطلوب من الفلسفة "اليوم" ليس أن تكون قولاً كلياً في الأشياء²، فتجلي لنا "ماهية الحياة والموت" و"ماهية الحرية" و"ما إذا كان الله موجوداً أم لا"³. ذلك أن ادعاء الكلية قد تلاشى اليوم كي تصبح الفلسفة منشئة أكثر إلى "الحدث". "أنا لست فيلسوفا بالمعنى التقليدي للعبارة، وقد لا أكون فيلسوفا بالمرة أو على الأقل فيلسوفا جيداً، وعلّة ذلك أنني لا أنشغل بالأبدي وما لا يطرأ عليه التغير وما يظل هوهو خلف تبديل المظاهر. إنني أنشغل بالحدث"⁴. ويقتضي التفكير في الحدث انشغالا بالراهن وطرح أسئلة من قبيل "ما الذي يحدث الآن؟ وما هو هذا "الآن" الذي نوجد داخله"⁵. وهو ما يعني أننا إزاء أسئلة حول "الحاضر" وحول شكل وجودنا اليوم. إنها أسئلة "أنطولوجية" بما أنها أسئلة حول الوجود، ولكن ليس الوجود المطلق وإنما الوجود التاريخي للبشر الذين هم "نحن". ذلك ما يسميه فوكو بـ "أنطولوجيا الحاضر"⁶

¹ - Michel Foucault, *Dits et Ecrits, I, Mais qui êtes- vous, Professeur Foucault ? Paris, Gallimard, 1994, p.612*

² - *Ibid*

³ *Ibid, p.662*

⁴ - Michel Foucault, *Dits et Ecrits, III, La scène de la philosophie, p.573*

⁵ Michel Foucault, *Dits et Ecrits, IV, Qu'est-ce que les Lumières ?, p.679*

⁶ *Ibid, p.687*

l'ontologie de nous-¹ " أنطولوجيا نحن " أو l'ontologie du présent
l'ontologie² " أنطولوجيا نحن التاريخية " mêmes
historique de nous-mêmes. فما الذي يعنيه الانشغال الفلسفي
بالحاضر؟ وما الذي يغلب على شكل وجودنا الراهن؟ وهل يمكن الحديث
عن فلسفة ملتزمة اليوم؟

إن مطلوبنا في هذه المداخلة محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة بالاستناد
أساسا إلى تصور فوكو لدور الفيلسوف اليوم. وهو دور يمكن تعيينه على
النحو التالي: يكمن دور الفيلسوف في أن يكون مضادا للسلطة بفهم
تقنيات ممارستها والانخراط في أشكال مقاومتها في كل المجالات التي تمارس
فيها: لا يتعلق الأمر بسلطة الدولة فحسب في شكلها الظاهر بل أيضا بكل
المؤسسات والمواقع التي تمارس فيها السلطة: كالسجون، والمصحات العقلية
والمؤسسات التعليمية والعلاقات بين الرجل والمرأة، بين المعلم والمتعلم،
بين الطبيب والمريض. وسنعمد في تحليل هذا الدور الذي يمكن للفيلسوف
أن يضطلع به اليوم على نظام البرهنة التالي:

- سنحاول في مرحلة أولى أن نبين أن السؤال الفلسفي عن الحاضر وإن
كان محوريا عند فوكو فإنه يمكن اعتباره السمة الغالبة على الفلسفة
الحديثة وخاصة فلسفة كانط.
- أما في مرحلة ثانية فسنبين أن السؤال الفلسفي عن الحاضر إنما يعني
تشخيص الحاضر بإظهار السمة الغالبة عليه: إن ما يغلب على الحاضر
البشري تضخم أشكال السلطة على نحو يفضي الى تعميق العنف والهيمنة
والاضطهاد.
- أما في مرحلة ثالثة فسنحاول بيان أن دور الفيلسوف بما هو مثقف
إنما يكمن في مقاومة ضروب السلطة وتقوية مواقع المتضررين في علاقات

¹Michel Foucault, *Dits et Ecrits, IV, Qu'est-ce que les Lumières ?*, p.687

²Ibid, p. 574

السلطة سواء كانوا مساجين أو معتقلين سياسيين أو مرضى أو طلبية
مناضلين أو نساء أو عمالاً مهاجرين.

• ومع ذلك فإنه يبقى من الضروري في نهاية هذا العمل البحث فيما إذا
كان بالإمكان تسمية ضروب المقاومة الفلسفية هذه التزاماً.

1. الحداثة الفلسفية وسؤال الحاضر

لعل السمة الغالبة على الفلسفة الحديثة الانشغال بالراهن. إن المعنى
الأصيل للحداثة الفلسفية وبالتالي لما يجعل الفلسفة فلسفة حديثة هو
سؤال الفيلسوف عن حاضره، أي عن زمانه وراهنه "إن السؤال حول
الحاضر هو إحدى الوظائف الكبرى للفلسفة المسماة حديثة"¹. "يتعلق الأمر
إذن بطرح أسئلة من قبيل "ما هو حاضري؟ وأي معنى يكتسيه هذا
الحاضر؟ وما الذي أفعله عندما أتحدث عنه؟ هنا يكمن في تقديري
التساؤل الجديد حول الحداثة؟ وذلك مجال يحسن البحث فيه عن كئيب،
وقد يكون من الضروري السعي إلى القيام بجينالوجيا الحداثة كسؤال
أكثر مما يتوجب التحديد الجينالوجي لفكرة الحداثة"². والحقيقة أن ما
تكشف عنه جينالوجيا الحداثة كسؤال عن الحاضر هو أن هذا السؤال
يجد انبثاقه في الفلسفة الكانطية وتحديداً في نصين لكانط هما: "ماهي
الأنوار؟

Qu'est- Révolution ? "ماهي الثورة؟" و Qu'est-ce que les lumières ?
que la

" إن سؤالي " ماهي الأنوار؟" و " ماهي الثورة؟" هما شكلا الطرح الكانطي
لمسألة حاضره الخاص"³ بما أنه كان جزءاً من بنية الأنوار ومعاصراً للثورة
الفرنسية .

¹ Michel Foucault, Dits et Ecrits, IV, Qu'est-ce que les Lumières ? p.682

² Ibid

³ Ibid

p.686

ففي النص الأول يعرف كانط الأنوار بأنها "خروج الانسان من حالة القصور"¹ أي من حالة العجز عن استعمال عقله دون وصاية الغير. ويعني كانط بالقصور هنا وضعاً محدداً للإرادة يجعل الانسان يقبل سيادة الآخر عليه ليقوده في مجالات يفترض به أن يستخدم فيها عقله. ويضرب كانط على ذلك أمثلة ثلاثاً: حيث يكون الإنسان في حالة قصور عندما يحل كتاب ما محل العقل فيه وعندما يحل الواعظ الاخلاقي محل الضمير فيه، وعندما يقرر الطبيب بدلاً عنه نظام غذائه. ولما كان الأمر متعلقاً بالإرادة أمكن الحديث هنا عن سبب ذاتي لهذا القصور. ولكن ثمة أيضاً سبب موضوعي يتمثل في حرص "الأوصياء على الناس" على ممارسة إشراف تام على البشرية تحول دون استخدام العقل"²، فالضابط يقول: "لا تفكر بل نفذ" ورجل المال يقول: "لا تفكر بل ادفع والكاهن يقول: "لا تفكر بل آمن". التنوير هو خروج الإنسان من حالة القصور هذه بأن يستخدم عقله استخداماً ذاتياً. "لتكن لك الجرأة على استعمال عقلك أنت: ذلك هو شعار التنوير"³. يعني التنوير إذن استخدام كل فرد عقله بنفسه على نحو يفضي الى استنارة الجمهور ككل. "التنوير مسار مشترك للبشر وفعل شجاع ينبغي لكل فرد أن ينجزه بنفسه"⁴. إنه "استخدام كوني وحر وعام للعقل"⁵. لذلك يمكن القول إن سؤال الأنوار عند كانط هو في الحقيقة سؤال حول حاضره

¹ Emmanuel Kant, *Qu'est-ce que les Lumières ? in Critique de la faculté de juger*, Paris, Gallimard, 1985, p.497

² Ibid, p.504

³ Emmanuel Kant, *Qu'est-ce que les Lumières ?*, p.497

⁴ Faucault, *Dits et Ecrits, IV, Qu'est-ce que les Lumières ?*, p.565

⁵ يميز كانط بين "الاستخدام الخاص" و"الاستخدام العام" للعقل، و يكون الاستخدام للعقل خاصاً ومقيداً عندما يتعلق الأمر بدور الفرد ينبغي له القيام به في المجتمع كان يكون موظف دولة أو دافع ضريبة أو جندياً. ففي هذه الحالات ينبغي له الانقياد الى قواعد وعايات محددة، ولكن الأمر لا يتعلق بخضوع انعمي بل بضرورة استخدام العقل بشكل ملائم لهذه القواعد والغايات. أما حين يتعلق الأمر بالتفكير، أي عندما يفكر المرء لكونه جزءاً من الانسانية المفكرة وغير مقيد بدور بعينه، فإنه ينبغي لاستخدام العقل أن يكون حراً وعاماً. انظر

-Kant, *Qu'est-ce que les lumières ?in Critique de la faculté de juger, op.cit., p.499*

-Faucault, *Dits et Ecrits, IV, Qu'est-ce que les Lumières ?*, p.5

ويرى فوكو أن "التنوير" مشكل سياسي "بالأساس عند كانط، حيث أن "السؤال المطروح هو كيف يمكن لاستخدام العقل أن يتخذ شكلاً عاماً هو بمثابة الضرورة؟ كيف يمكن للجرأة على المعرفة أن تمارس في النور دون أن يتعارض ذلك مع طاعة الافراد بالقدر المستطاع؟ لذلك ينبغي كانط بأن يقترح على فريديريك الثاني ما يشبه العقد الذي يمكن تسميته بعقد بين الاستبداد العقلاني والعقل الحر: الاستخدام العام والحر لعقل مستقل هو أفضل طريقة لضمان الطاعة شريطة أن يكون المبدأ السياسي الذي تنبئ طاعته منسجماً مع العقل الكوني"

Faucault, *Dits et Ecrits, IV, Qu'est-ce que les Lumières ?*, p.567

الخاص. "إن السؤال الأول الذي يظهر للعيان لأول مرة من خلال نص كانط هذا هو سؤال الحاضر، سؤال الراهن: ما الذي يحدث اليوم؟ ما الذي يحدث الآن؟ وما هو هذا الآن الذي نوجد داخله ويحدد اللحظة التي نكتب فيها؟"¹. لنقل إن سؤال الأنوار في جوهره هو سؤال عما يمكن أن يكون في الحاضر جديرا بالمعنى من منظور الفيلسوف، إذ يتعلق الأمر بتحديد أي العناصر، داخل الحاضر، يتوجب معرفته وتمييزه وفك رموزه. ما الذي يكون في الحاضر جديرا بالمعنى بالنسبة لتفكير فلسفي؟"². إن ما هو جدير بالمعنى في الحاضر هو، من منظور كانط، وجود شيء بصدد الحدوث: إنه الاستخدام الحر والعام للعقل.³

ذلك هو مضمون النص الكانطي الأول المسى "ما هي الأنوار؟" وهو نص يعود الى سنة 1784. أما النص الثاني الذي يعر عن وعي كانطي بالحاضر فهو المسى "ماهي الثورة؟". وهو السؤال الذي حاول الإجابة عنه سنة 1798، أي تسع سنوات بعد اندلاع الثورة الفرنسية. والحقيقة أن كانط يطرح سؤال الثورة في علاقة بسؤال أعم منه هو: هل ثمة تقدم مطرد للنوع البشري؟ وفي تقديره أن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي البحث عن حدث دال يمكن أن يشهد على وجود هذا التقدم. هذا الحدث يجده كانط في الثورة الفرنسية. وفي هذا المستوى ينبغي التمييز بين مضمون الثورة ورهانها.

يكمن مضمون الثورة في سلسلة الأحداث التي أفضت الى إدخال اضطراب على شكل السلطة ونمط الحياة. لقد أفضت هذه الأحداث إلى قلب الأشياء وأدت حسب كانط إلى مراكمة ضروب من "البؤس والفظاعات" التي لا يمكن إنكارها.⁴ ولكن رهان الثورة لا يكمن في تلك

¹ Foucault, *Dits et Ecrits*, IV, *Qu'est-ce que les Lumières ?*, p.679

² *Ibid*, p.680

³ الملاحظ أن للمقاربة الكانطية للأنوار مستويين أحدهما سالب والآخر موجب. ويكمن المستوى السالب في تعريف كانط للأنوار بأنها "خروج من"، إنها خروج من حالة القصور. وهو ما يعني أن الحاضر ليس أكتمالا. أما المستوى الموجب فيتمثل في تعريف كانط للأنوار بأنها مسار بصدد الحدوث، إنها أمر واقع.

⁴ Kant, *Le conflit des facultés dans la philosophie de l'histoire*, Paris, Denoël, 1985, p.170

الأحداث بل فيما تمثله من زاوية تاريخ النوع البشري: إنها علامة دالة على تقدم الإنسانية. لذلك يقول كانط: "لا يهم ما إذا نجحت ثورة شعب ممتلئ فكراً أو فشلت، وهي ثورة رأيها تحدث أمام أنظارنا. وليس مهماً أيضاً ما إذا أفضت الثورة إلى مراكمة البؤس والفظاعات على نحو يجعل المرء يمتنع عن إعادة التجربة لثمنها الباهض؟"¹. الحقيقة أن "ما هو مهم ليس المسار الثوري ولا يهم ما إذا نجح هذا المسار أو فشل، فلا علاقة لذلك بالتقدم، أو على الأقل بالعلامة الدالة على التقدم"². إن ما يكتسي دلالة وما يمثل علامة دالة على التقدم هو وجود أناس يتعاطفون مع الثورة ويتوقون إليها. إن ما هو مهم في الثورة ليست الثورة ذاتها بل ما يحدث في أدمغة الأشخاص الذين لا يقومون بها، أو على الأقل ليسوا فاعلين أساسيين فيها. ما هو مهم العلاقة التي تنشأ بينهم وبين الثورة التي لم يكونوا من الفاعلين النشطين فيها"³. وعلة ذلك أن الثورة كحدث منشئة لحماسة لدى البشر تجعلهم يدركون أن تغيير الواقع غداً أمراً ممكناً على نحو غير مسبق. لنقل إن قيمة الثورة تكمن بتعبير فوكو في "مشهديتها". وتعني "مشهدية الثورة"⁴ طريقة تلقيها من قبل أناس، أي من قبل مشاهدين، لم يشاركوا فيها ولكنهم يشهدون حدوثها، فتكسيهم حماسة وتوسع دائرة الممكن بالنسبة إليهم: "الثورة حدث ذو قيمة تذكيرية واستدلالية وتوقعية"⁵. فهي تذكر الناس باستمرار بما غداً ممكناً وتجعل الممكن متوقعا وتقوم دليلاً على اطراد التقدم البشري.⁶

¹ Kant, *Le conflit des facultés dans la philosophie de l'histoire*, p.171

² Foucault, *Dits et Ecrits, IV, Qu'est-ce que les Lumières ?*, p.684

³ *Ibid*, p.685

⁴ *Ibid*, p.684

⁵ *Ibid*

⁶ ينبغي التمييز اذن بين مضمون الثورة الذي يحيل إلى أحداث خبرية، ورهان الثورة بما هي علامة دالة على تقدم النوع البشري. ولا تكن المسألة بالنسبة إلى الفلسفة في تحديد ذلك الجانب الذي يمكن الاحتفاظ به من الثورة ورفعها إلى مصاف الفؤذج بل تكن المسألة في معرفة ما يدعي فعله بإرادة الثورة وبهذا التحمس للثورة من جهة ما هو شيء مختلف عن عملية الثورة ذاتها"

(Foucault, *Dits et Ecrits, IV, Qu'est-ce que les Lumières ?*, p.68)

وإنه "لمن المحتمل دوماً أن تسقط الثورة في هاوية، ولكن من جهة ما هي حدث لا يهم مضمونه، فإن وجودها يشهد على وجود إمكان كامن ودائم لا يمكن نسيانه. إن الثورة من زاوية التاريخ المستقبلي هي ضمانة استمرار الحركة نحو التقدم" (Ibid, p.685)

والحاصل من هذين السؤالين الكانطيين "ماهي الأنوار؟" و "ما هي الثورة؟" أن الوظيفة الأساسية للفلسفة تكمن في السؤال عن الحاضر. " إن سؤالي "ماهي النوار؟" و "ما الذي ينبغي فعله بإرادة الثورة؟" سؤالان يحددان مجال المسألة الفلسفية لما نحن عليه راهنا¹. إنهما يحددان الدلالة العميقة لما يسميه فوكو "أنطولوجيا الحاضر" بماهي قول فلسفي نقدي في شكل وجودنا اليوم، في القرن العشرين، أي بعد قرنين من انبثاق سؤال الحاضر في الفلسفة الكانطية². فما هو الحاضر بالنسبة لفوكو؟ وأي تشخيص للحاضر يمكن للفيلسوف اليوم أن يقدمه؟

II. الفيلسوف وتشخيص الحاضر: مسألة تنامي السلطة

في تقدير فوكو أن من بين المهام الأساسية التي ينبغي للفيلسوف أن يضطلع بها اليوم هي تشخيص الحاضر. وهو تشخيص ندرك بمقتضاه أن السمة الغالبة على القرن العشرين هي تضخم السلطة. فمن هو "الفيلسوف" اليوم؟ وأي معنى لفعل التشخيص؟ وما هي مظاهر تضخم السلطة؟

1- في معنى الفلسفة اليوم

يرى فوكو أن الفلسفة كبحت في المطلق والكوني لم تعد الشكل الوحيد الممكن للتفلسف. " إن الفلسفة التي تهدف إلى التفكير في الكلية ليست سوى شكل من أشكال الفلسفة الممكنة. إنها أحد الأشكال الممكنة التي مثلت في الحقيقة الدرب الملكي للتفكير خلال القرن الأخير منذ هيغل. ولكن بوسعنا القول اليوم إن الفلسفة لم تعد قولاً شمولياً في الأشياء على شاكلة القول الهيغلي. بل أصبحت ضرباً من الفعلية يمارسها المؤرخ والألسني ورجل السياسة. ' أعتقد أن الفلسفة اليوم لم تعد موجودة ولا

¹ Foucault, *Dits et Ecrits, IV, Qu'est-ce que les Lumières ?*, p.687

² في تقدير فوكو أن سؤال الحاضر عند كانط يعبر عن موقف وحياة فلسفيين طبعاً الفلسفة خلال القرنين الأخيرين. " يبدو لي أنه يمكن أن نمنح معنى لهذا السؤال النقدي حول الحاضر وحولنا نحن، هذا السؤال الذي صاغه كانط من خلال التفكير في التنوير، بل يبدو لي أن الأمر يتعلق بطريقة في التفلسف لا تخلو من الأهمية أو النجاعة منذ القرنين الأخيرين ينبغي بالتأكيد ألا نعتبر أنطولوجيا نحن التاريخية نظرية أو مذهباً أو حتى مدونة ثابتة ومترجمة. ينبغي اعتبارها موقفاً وابتوس وحياة فلسفية يكون فيها قد ما نحن عليه تحليلاً تاريخياً للحدود التي توضع أمامنا واختياراً لاختراقها الممكن" Foucault, *Dits et Ecrits, IV, Qu'est-ce que les Lumières ?*, p.577

أقصد بذلك أنها اندثرت بل هي تخفت داخل كم هائل من الفعاليات المتنوعة: إن أعمال المشتغل بالأكسيوماتيك وأعمال الألسني والاتنولوجي والمؤرخ والثوري ورجل السياسة، يمكن أن تعتبر أشكال فعالة فلسفية¹. لقد كانت ثمة حقبة كبرى للفلسفة حيث يمكن لنص فلسفي أن يقول لنا ماهية الحياة والموت وماهية الحرية، وما إذا كان الله موجودا أم لا. و"نحسب أن نوع الفلسفة هذا لم يعد ممكنا اليوم وأن الفلسفة وإن لم تتبخر فإنها تشظت"². والحقيقة أن فلسفة القرن العشرين بصدد تغيير سماتها، ليس فحسب على جهة تحديد مجالها أو التخلي عن أجزاء منها، بل أيضا على جهة تنسيب ذاتها. إذ "ما الذي يعنيه بالأساس الاشتغال بالفلسفة اليوم؟ لا يعني ذلك تكوين خطاب حول الكلية، خطاب يستعيد كلية العالم، بل يعني إنجاز فعالية ما، ضربا من ضروب الأنشطة. أقول باختصار إن الفلسفة اليوم شكل من أشكال الفعالية يمكن القيام بها في مجالات مختلفة"³. ولعل الفعالية المميزة للفلسفة هي فعل التشخيص وخاصة تشخيص الحاضر.

2- تشخيص الحاضر

إن "تشخيص الحاضر وقول ما عساه يكون وفيما يختلف عن سواه، إي عن الماضي، هي المهمة التي يظطلع بها الفيلسوف اليوم"⁴. ويعني تشخيص الحاضر الوقوف عند الفوارق بينه وبين الماضي، ومن ثمة الوقوف على السمة الغالبة عليه، بحيث يكون عمل الفيلسوف شبيها بعمل الطبيب. "أعني بالمعرفة التشخيصية عموما ضربا من ضروب المعرفة يعين الفوارق ويحددها. مثال ذلك أن الطبيب الذي يشخص مرض السل إنما يفعل ذلك بتحديد الفوارق بين مريض السل ومريض الالتهاب الرئوي أو غيره من الأمراض. وبهذا المعنى فإن المعرفة التشخيصية تبني داخل

¹ Foucault, *Dits et Ecrits, I, Sur les façons d'écrire l'histoire*, p.597

² *Ibid*, p.662

³ *Ibid*, p.612

⁴ Foucault, *Dits et Ecrits, I, Interview avec Michel Foucault*, p.665

مجال موضوعي يحدده المرض وأعراضه¹. والحقيقة أن فعالية التشخيص كفاعلية فلسفية إنما تعود حسب فوكو إلى نيتشه: "لقد اكتشف نيتشه أن الفعالية المميزة للفلسفة تكمن في فعل التشخيص: من نحن اليوم وما عساه يكون هذا اليوم الذي نحيا صلبه؟"². ولا شك أن فوكو قد تأثر بهذا التحديد النيتشوي لمعنى الفلسفة³ حيث يرى أنه لا يمكن أن يلقب بالفيلسوف إلا من زاوية اعتبار الفلسفة تشخيصا للحاضر: "قد تكون لما أفعله صلة بالفلسفة وهذا أمر ممكن خاصة من حيث أن للفلسفة منذ نيتشه، مهمة التشخيص، وهي لم تعد تسعى إلى التعبير عن حقيقة يمكن أن تكون صالحة للجميع ولكل الازمة. إنني أسعى إلى التشخيص وإلى تحقيق تشخيص للحاضر أي قول ما نكونه اليوم وما يعنيه اليوم القول الذي نقول. وهذا المعنى بإمكانني القول إنني فيلسوف"⁴. إن تشخيص الحاضر إذن ومعرفة من نكون فعالية فلسفية يمكن أن ينجزها المؤرخ والسياسي والثوري بحيث تغدو الفلسفة مجموعة تلك الفعاليات الثقافية: "يتعلق الأمر بتلاشي الفلسفات لا بتلاشي الفيلسوف. أعتقد أنه ثمة ضرب من الفعاليات "الفلسفية"، في مجالات محددة، تتمثل عموما في تشخيص حاضر ثقافة من الثقافات. تلك هي المهمة الحقيقية التي يمكن أن يظطلع بها اليوم هؤلاء الذين نسميهم فلاسفة"⁵. لكن أي تشخيص يمكن للفيلسوف المثقف أن يقدمه حول الحاضر؟، يرى فوكو أن ما يغلب على حاضرنا، أي على مجتمعات القرن العشرين، تنامي مظاهر السلطة.

3- الحاضر وتنامي السلطة: إذا كان الفقر هو أهم المشكلات التي شغلت مفكري القرن التاسع عشر فإن السلطة هي أهم معضلات القرن العشرين. ف" خلال القرن التاسع عشر كان المشكل الأساسي في أوروبا هو مشكل

¹ Foucault, *Dits et Ecrits, II, Les problèmes de la culture, un débat Foucault – Preti*, p.369

² Foucault, *Dits et Ecrits, I, Mais qui êtes- vous, Professeur Foucault ?*, p.613

يقول فوكو "أما فيما يتعلق بتأري فعليا بنيتشه فهو أمر من الصعب علي تدقيقه لأنني أدرك كم كان هذا التأثير عميقاً"

³ (Foucault, *Dits et Ecrits, I, Mais qui êtes- vous, Professeur Foucault ?*, p.613)

⁴ *Ibid*, p.606

⁵ *Ibid*, p.620

الفقر. لقد انشغل أغلب المفكرين في بداية ذلك القرن بالإشكال التالي: كيف يحدث أن يكون إنتاج الثروات مصحوبا بفقر منتجي الثروة؟ لا شك أن هذا الإشكال لم يحل كليا خلال القرن العشرين، ولكنه لم يعد يطرح بنفس الإلحاح. لقد ظهر مشكل آخر لا يتعلق بنقص الثروة بل بتنامي السلطة¹. وفي تقدير فوكو أن تنامي السلطة، في شكلها السياسي على وجه الخصوص، يتجلى من خلال الأنظمة الكليانية ومن بينها الفاشية والستالينية: "لقد عرف القرن العشرين مرضين أساسيين من أمراض السلطة. لقد عرف وجهين من وجوه الحى الحارقة ذهبا بعيدا بتجليات السلطة الأكثر حدة. هذان المرضان اللذان حكما قلب القرن العشرين ووسطه هما بالطبع الفاشية والستالينية"².

ولعل المفارقة في هذه الأنظمة الكليانية أنها كانت تستند إلى فلسفات يفترض فيها أن تكون فلسفات حرية. لقد استخدم هتلر مثلا فلسفة نيتشة (بل وأهدى موسوليني الأعمال الكاملة لـ نيتشة)، و"مع الستالينية غدت المفارقة أزمة حادة لأن الستالينية عرضت نفسها كدولة وفلسفة في نفس الوقت، وهي فلسفة توقعت اضمحلال الدولة، ولكن بتحويلها الى دولة أصبحت دولة مفصولة عن كل تفكير فلسفي"³. "إنها كوميديا حزينة لفلاسفة محدثين كانوا معترضين على ضروب الإفراط في السلطة ولكن القدر شاء أنه كلما ازداد الاستماع اليهم وكلما طبعت المؤسسات السياسية بفكرهم إلا ووقع استخدامهم في تبرير وجوه المغالاة والإفراط في استخدام السلطة"⁴. هذا الضرب من الدول يسميه فوكو "الدول الفلسفية" أو "الدول-الفلسفات"⁵. لنقل إذن إن الأمر يتعلق بدول

¹ Foucault, *Dits et Ecrits, III, La philosophie analytique de la politique*, p.536

² *Ibid*, p.535

ويقول فوكو: "لقد كان ثمة أنظمة إما هي رأسمالية، كما هو حال الفاشية، أو اشتراكية، كما هو حال الستالينية، حيث مثل تنامي سلطان جهاز الدولة وتنامي البيروقراطية وسلطان الأفراد بعضهم على بعض أمرا مستغزا مثلا كان الفقر مستغزا خلال القرن التاسع عشر. إن ما مثلته المعتقلات التي عرفها الناس في كل هذه الدول بالنسبة للقرن العشرين شبيه بما مثلته الأحياء العالية المعروفة ونسبة الوفيات بين العمال المعاصري ماركس" (Foucault, *Dits et Ecrits, III, Pouvoir et Savoir*, p.401)

³ Foucault, *Dits et Ecrits, III, La philosophie analytique de la politique*, p.539

⁴ Foucault, *Dits et Ecrits, III, La philosophie analytique de la politique*, p.539

⁵ Foucault, *Dits et Ecrits, III, La philosophie analytique de la politique*, p.538

كليانية. و" الدولة الكليانية بالمعنى الدقيق للعبارة هي الدولة التي تتعاضد فيها الأحزاب السياسية وأجهزة الدولة والأنظمة المؤسسية والايولوجيا لكي تشكل وحدة تخضع لرقابة صارمة على نحو يستبعد كل التصدعات والثغرات والانحرافات الممكنة"¹. إن السؤال الذي ينبغي أن يطرح هو: بم نفسر تحول دولة فلسفية إلى دولة كليانية؟

خلال السنوات الثلاثين وفي الدوائر الماركسية تم تفسير تضخم السلطة بأسباب اقتصادية: "لقد اعتقد الماركسيون أن ما يفسر ظهور الفاشية وفهمها للسلطة وما يفسر الستالينية ذاتها إنما هي الصعوبات الاقتصادية التي واجهتها الرأسمالية سنة 1929 والتي كان لها تأثير على الاتحاد السوفييتي"². غير أن ما حدث سنة 1956 أمر لا يمكن حسب فوكو تفسيره بأسباب اقتصادية: "إن ما حدث سنة 1956 أمر أساسي وجوهري: لقد ثار المجريون في بودابست فتدخل الروسيون والدولة السوفييتية بشكل عنيف بالرغم من أنها لم تكن واقعة تحت تأثير الدواعي الاقتصادية. لقد حدث ذلك بعد زوال الفاشية في شكلها المؤسسي في أوروبا وبعد وفاة ستالين"³. "إننا إزاء "تغول" للسلطة على نحو لا يمكن فهمه بواسطة آليات التحليل الموروثة عن القرن التاسع عشر وهي آليات اقتصادية. لقد كان ثمة اعتقاد أن حل المشكلات الاقتصادية سيفضي إلى تلاشي كل أشكال الإفراط في السلطة ولكننا اكتشفنا العكس تماما خلال القرن العشرين: بوسعنا حل جميع المشكلات الاقتصادية لكن تغول السلطة لا يزول"⁴. ينبغي البحث إذن عن تفسير آخر لظاهرة تضخم السلطة. يعتقد فوكو أن الأمر يتعلق بطبيعة السلطة ذاتها، فكل سلطة تهدف إلى الإخضاع. وليس

¹ يتعلق الأمر بالتأكد بفلسفات الحرية خلال القرن الثامن عشر، ولكن أيضا بفلسفات الحرية عند هيجل ونييتشه وماركس. غير أن فلسفات الحرية هذه قد أدت في كل مرة إلى ظهور سلطة كانت تقبض نظام الحرية وتقضي الحرية التي غدت تاريخا سواء اتخذت ضروب السلطة هذه شكل الترهيب أو البيروقراطية"

(Foucault, *Dits et Ecrits, III, La philosophie analytique de la politique, p.538*)

² Foucault, *Dits et Ecrits, III, Michel Foucault, la sécurité et l'Etat, p.386*

³ *Ibid, p.401*

⁴ *Ibid*

⁴ *Ibid, p.401*

الاختلاف بين سلطة وأخرى اختلافا في الطبيعة بل هو اختلاف في الدرجة. اذ تتباين أشكال السلطة بحسب الاختلاف في الكيفيات التي بها تهيمن وتفرض الخضوع. بحيث يكمن الاختلاف في تقنيات السلطة وفي تكنولوجيا السلطة التي بلغت ذروتها في "الأنظمة الموسولينية واليهودية والستالينية ونظام الحكم حاليا في الشيبي وكامبوديا"¹. ثمة في نظر فوكو أزمة حقيقية يحيها الفكر الثوري عموما واليسار الأوروبي خصوصا بعدما حدث في كثير من الدول ذات المرجعية الايديولوجية اليسارية. فالسمة الغالبة على هذه الدول الرقابة على الأفراد على نحو يفضي أحيانا الى ممارسة عنف منظم ضدهم. " ففي الاتحاد السوفييتي والصين تكون الرقابة على حياة الأفراد صارمة ولا شيء في حياة الفرد يفلت من تلك الرقابة"². ولقد كتب فوكو عقب موت ماوتسي تونغ سنة 1977: "إننا نحيا أياما مظلمة، ذلك أن خلافة ماوتسي تونغ قد كانت على وقع الأسلحة. أشخاص قتلوا وآخرون سجنوا ... منذ ثورة أكتوبر من سنة 1917، وربما منذ الحركات الثورية الأوروبية الكبرى لسنة 1848 أي منذ قرابة 120 سنة، منذ ذلك التاريخ، لم يعد على وجه الأرض ولأول مرة، موضع قدم لأي بارقة أمل. لم تعد ثمة وجهة لا في الاتحاد السوفييتي، وهو من لتحصيل الحاصل، ولا في الدول المحيطة به، وهو أمر بين. لا وجود لبارقة أمل لا في كوبا، ولا في الثورة الفلسطينية، ولا في الصين بطبيعة الحال، لا في الفيتنام ولا في كمبوديا. ولأول مرة، وبسبب ما حصل في الصين، فأن اليسار الأوروبي، ذلك الفكر الثوري الذي كان يجد مرجعيته في كل بلاد العالم ويعمل على إعدادها بشكل دقيق، ذلك الفكر الذي كان يجد قبلته في ما يحدث في تلك البلاد، ذلك الفكر فقد ولأول مرة مرجعيته التاريخية التي كان يعثر عليها سابقا في كثير من بلاد العالم. لقد فقد مرتكزاته الملموسة. لم يعد ثمة اليوم حركة

¹ Foucault, *Dits et Ecrits, III, Pouvoir et Savoir*, p.536

² *Ibid*, p.38

ثورية واحدة أو بلد اشتراكي واحد يمكننا أن نجعل منه قدوة وأن نقول: على هذا النحو ينبغي لنا أن نفعّل! هذا هو الأنموذج! هذا هو الدرب!"¹. هذا هو الحاضر كما يشخصه فوكو: أزمة في الفكر الثوري اليساري مرتبطة بمسألة تضخم السلطة.² ولكن أزمة الفكر الثوري اليساري هي أيضا أزمة النزعة الإنسانية في انبائها على مفاهيم " الحرية " و" الوعي " و" الذات"³. إذ أوهمنا الإنسانويون أن الانسان ذات *sujet* قوامها الوعي المستقل والإرادة الحرة. غير أن تطور العلوم الانسانية كالألسنية وعلم النفس التحليلي وعلم الاقتصاد قد كشف لنا أن الانسان ليس حرا بقدر ما يخضع لبني وضرورات مختلفة متعلقة باللغة والسلوك والإنتاج. "لقد كانت الماركسية نزعة إنسانية، وبالمثل كانت الوجودية والشخصانية نزعتين إنسانويتين. ولقد كان الناس في فترة ما، يدعمون القيم الإنسانية المتمثلة في الاشتراكية القومية، كما كان الستالينيون أنفسهم يقولون إنهم إنسانويين"⁴.

يفضي هذا التشخيص للحاضر إذن إلى الوقوف على أزمة الفكر الثوري اليساري بما هو تجل لأزمة الإنسانية. لقد كانت ممارسة السلطة في كثير من الدول الاشتراكية امتحانا حقيقيا لذلك الفكر الثوري. والحصيلة هي أن ذلك الفكر الثوري القائم على فكرة الحرية الإنسانية قد تحول الى ممارسة كلياوية عندما اتخذ شكل الدولة .

ولكن ينبغي أن ندرك أن مفهوم السلطة عند فوكو لا يختزل في الدولة، "إن ما يتبادر إلى أذهان البشر عندما يجري الحديث عن السلطة هو الجيش والأمن والقضاء.... غير أن هذا الفهم للسلطة يختزلها في أجهزة

¹ Foucault, *Dits et Ecrits, III, La torture c'est la raison, p.398*

² " إذا كانت مسألة لسلطة تطرح فإن ذلك لا يعود إلى أننا نحن من يطرحها بل هي طرحت علينا نفسها، لقد طرحت علينا من قبل حالتنا الراهنة وذلك أمر أكيد ولكنها طرحت علينا أيضا من قبل ماضينا وهو ماضي قريب شهدنا نهايته مؤخرا"

(Foucault, *Dits et Ecrits, III, La philosophie analytique de la politique, p.535*)

³ "النزعة الإنسانية مبحث أو مجموعة مباحث ومشاريع عقلنة ظهرت في مناسبات عديدة عبر التاريخ. وهذه المباحث المرتبطة دوما في الدراسات الغربية بأحكام القيمة، هي مباحث متبدلة من جهة مضامينها ومن جهة القيم التي احتفظت بها"

(Foucault, *Dits et Ecrits, IV, Qu'est-ce que les Lumières ?, p.573*)

⁴ *Ibid, p.573*

الدولة والحال أن علاقات السلطة توجد في مواضع أخرى... توجد علاقات السلطة بين الرجل والمرأة، بين من يعرف ومن لا يعرف، بين الآباء والأبناء وفي صلب العائلة. وتوجد داخل المجتمع الآلاف من علاقات السلطة وبالتالي من علاقات القوة"¹. إن السلطة تمارس أكثر مما تمتلك². وهي تمارس في "المحاكم والسجون والمستشفيات والمصحات العقلية وفي مجال طب الشغل وفي الجامعات"³. وفي هذه المواقع يمكن أن تمارس السلطة بإفراط وبعنف. ويمكن أن نختار ثلاث أمثلة عن المجالات التي يمارس فيها العنف وهي السجون والمصحات العقلية والمؤسسات التعليمية.

أ-السجون: تبين أركيولوجيا فوكو أن السجن، كمؤسسة عقابية، اختراع يعود إلى بداية القرن التاسع عشر⁴. قبل ذلك التاريخ كانت المشانق والمقاصل تكسو أوروبا. ولم يكن ثمة ما يثير الدهشة في أن ترى شخصا فقد أذنه أو أحد أصابعه أو إحدى عينيه. كذلك كان شكل العقاب. لقد عوض القرن التاسع عشر أشكال العقاب هذه بمؤسسة السجن حيث تمارس ضروب الاحتجاز والعنف على المساجين. وهي ممارسات لا تخلو منها سجون القرن العشرين ذاتها. ففي سنة 1971 وصف فوكو ما حدث في سجن تول -Toul- بفرنسا إثر محاولة تمرد السجناء بالعبارات التالية: "طيلة أيام عديدة، كان ثمة رجال ظلوا مشدودي الأرجل والأيدي فوق أسرة. وكانت ثمة محاولات انتحار كل ليلة تقريبا مع التناوب بين العقاب والأدوية المهدئة"⁵. وتكمن وظيفة السجن الحقيقية في المحافظة، داخل المجتمع، على ثنائية المباح والممنوع. "فبواسطة السجون تجري المحافظة

¹ Foucault, *Dits et Ecrits, III, Pouvoir et Savoir, p. 406*

² Foucault, *Surveiller et Punir, Paris, Gallimard, p. 31*

يرى فوكو أن السلطة تمارس حينما ولينا وجوهنا على نحو ميكروفيزيائي، حيث نلقاها مبثوثة في "مراكز صغيرة لا يحصرها العد والتي قد يكون الواحد منها قائدا صغيرا أو حارس عمارة أو مدير سجين أو قاضيا أو مسؤولا نقابيا أو رئيس تحرير صحيفة"

Foucault, Entretien avec Gilles Deleuze, l'arc, n 49, 1972

³ Foucault, *Dits et Ecrits, II, Préface, p.195*

⁴ Foucault, *Dits et Ecrits, III, Prisons et révoltes dans les prisons, p.432*

⁵ Foucault, *Dits et Ecrits, II, Le discours de Toul, p.236*

على المجرم كخطر، ويجري الرفع من حجم تهديد المتوحش بهدف تقوية ايدولوجيا الخير والشر، المباح والممنوع"¹.

ولا ترى الدولة أحيانا ضيرا في استخدام النظام القضائي لغاية القمع. "فمنذ ماي 68 ثمة مبالغات في استخدام النظام القضائي بغاية قمع العمال الفرنسيين والمهاجرين والطلبة والتجار والمزارعين. تشهد على ذلك شاحنات الشرطة في الشوارع والعصى والأكريموجين والإيقافات وسوء المعاملة من قبل الشرطة" عند التحقيق وخلال الإيقاف"².

ب - المصححات العقلية: يعتبر فوكو أن الاضطهاد يمتد إلى مصحات الطب النفسي إذ "أن الدور القمعي للمصحح العقلي معلوم. حيث يجري احتجاز الناس وإخضاعهم لعلاجات كيميائية و نفسية لا يسيطرون عليها"³. ويمارس الطبيب النفسي ضربا من ضروب السلطة القاهرة عندما يحتكر شرعية التمييز بين "السوي" و"المريض" ويحتكر حق تعيين العلاج الذي لا يخلو من ألم أحيانا. "إن العلاج الطبي شكل من أشكال القمع والطبيب النفسي اليوم شخص يحدد بشكل جازم السواء والجنون"⁴. أضف إلى ذلك أن الطبيب النفسي يمارس سلطة عندما يقرر الطريق الذي ينبغي للشخص أن ينتهجه. إنه يقرر مستقبل الطفل عندما يتحدث عن ميله إلى هذه المهنة أو تلك. بل يمكن القول إن المجتمعات الحديثة أصبحت مهيكلت بواسطة سلطة الطب النفسي. "لقد أصبح العالم مصححا عقليا كبيرا الحكام فيه هم علماء النفس ومرضاه عموم الشعب. ومع كل يوم يمر يتعاظم دور علماء الاجرام والأطباء النفسيين وكل هؤلاء الذين يدرسون السلوك العقلي للإنسان. ولهذا السبب فإن السلطة السياسية بصدد اكتساب دور جديد هو العلاج النفسي"⁵.

¹ اعتمد فوكو في وصف حالة السجناء تلك على تقرير أعدته الطبيبة النفسية Edith Rose وهي طبيبة بسجن تول -Toul- وذلك بعد حركة تمرد المساجين بين 9 و13 ديسمبر 1971

² Foucault, *Dits et Ecrits, II, Préface, p.196*

³ Foucault, *Dits et Ecrits, II, Par- delà le bien et le mal, p.232*

⁴ *Ibid., p.433*

⁵ Foucault, *Dits et Ecrits, II, Le monde est un grand asile, p.434*

ج- المؤسسات التعليمية: توكل إلى المؤسسة التعليمية مهمة نقل المعرفة ولكن "في نقل المعرفة يوجد عنف مضاعف: عنف ضد من يجري اقصاؤهم من دائرة المعرفة. وعنف ضد من يتلقونها فتفرض عليهم نموذجاً وقواعد"¹. وتنطوي المعرفة ذاتها مثلما يتم نقلها على امتثال لما هو سياسي. ويضرب فوكو على ذلك مثال مادة التاريخ كما تدرس للناشئة في فرنسا، حيث تقدم المعرفة الرسمية دوماً السلطة السياسية كرهان لصراع داخل طبقة اجتماعية ذات نفوذ. وقد يتخذ الصراع شكل المعارك بين السلالات الحاكمة داخل الطبقة الأرستقراطية أو الصراعات النيابية داخل طبقة البورجوازية أو شكل الصراع بين الأرستقراطية والبورجوازية. وعموماً فإن الصراع حول السلطة السياسية شأن يهم طبقات بعينها ذات نفوذ. أما الحركات الشعبية وضروب التمرد فيجري عرضها كنتاج للبطالة والمجاعات وكثرة الضرائب، ولا يتم عرضها مطلقاً كصراع من أجل السلطة. كما لو أنه يمكن للطبقات الشعبية أن تحلم بالغذاء الجيد ولكن ليس من حقها أبداً ممارسة السلطة².

ثمة إذن في هذه المجالات أي السجن والمصححات العقلية والمؤسسات التعليمية عنف مسلط على البشر. ذلك ما يكشف عنه تشخيص الحاضر عند فوكو. ولكن هل ينبغي الاكتفاء بتشخيص الحاضر؟، في تقدير فوكو أن تشخيص الحاضر ليس سوى خطوة باتجاه مقاومة السلطة .

III- الفلسفة ومقاومة السلطة

"بإمكان الفلسفة أن تلعب دور المضاد للسلطة"³ ، لأن "الفلسفة هي ما يضع موضع السؤال كل مظاهر الهيمنة أيا كان مستوى تجليها أو شكلها، سواء كان تجلياً سياسياً أو اقتصادياً أو جنسياً أو مؤسساتياً"⁴ . بإمكان

¹ Foucault, *Dits et Ecrits*, II, *Le monde est un grand asile*, p.424

² *Ibid*, p.224

³ Foucault, *Dits et Ecrits*, III, *La philosophie analytique de la politique*, p.540

⁴ Foucault, *Dits et Ecrits*, IV, *L'éthique du souci de soi comme pratique de la liberté*, p.729

الفلسفة أن تقوم بهذا الدور¹، ولكن شريطة "أن تكف عن التفكير كما لو كانت نبوة أو بيداغوجيا أو تشريعا وأن تحصر مهمتها في دعم استراتيجيات خصوم السلطة داخل علاقات السلطة واجلائها وإظهارها وتعزيزها"². وتستوجب المقاومة تشكيل "جبهة هجوم"³ في كل مجال من المجالات التي تمارس فيها السلطة. ففيما يتعلق بالسجون مثلا ينبغي تجميع كل الفئات التي قامت الطبقة الحاكمة بالفصل بينها بواسطة لعبة التراتب الاجتماعي والمصالح الاقتصادية المتضاربة. ينبغي "تجميع المساجين والمحامين والقضاة"⁴. يتعلق الأمر إذن بضرورة "ولوج السجون وإظهار ما يتم داخلها من انتهاكات وإضرابات جوع وأشكال تمرد وعصيان"⁵. كما "ينبغي أن نكون حاضرين على كل الجبهات: في الجامعة والسجون والمصححات النفسية. ولكن ليس في نفس الوقت، فقوانا لا تكفي وإنما بالتناوب. إنها مقاومة طويلة الأمد ومطرده"⁶. إننا إزاء شكل محدد للمقاومة لا يتخذ من الكتابة أداة أساسية لمجاهة السلطة، بل يعتمد الممارسة أو ما يسميه فوكو الفعل الثوري الحقيقي: "ألم يحن الوقت الآن للمرور إلى الأفعال الثورية بحق؟ الآن وقد جردت البورجوازية والمجتمع الرأسمالي كليا الكتابة من كل فعالية ثورية ألا يكون فعل الكتابة في خدمة تعزيز قوة النظام البورجوازي القمعي؟ ألا ينبغي التوقف عن الكتابة؟"⁷.

وتهاجم هذه المقاومة تجليات السلطة الأكثر قربا منا. إنها تتهاجم كل ما يمارس من هيمنة على الأفراد. وهي بالتالي مقاومة مباشرة وحينية،

¹ يرى فوكو أن مهمة الفيلسوف كانت دائما وضع حد أمام تضخم السلطة. "من بين أقدم وظائف الفيلسوف في الغرب ومن بين أهم أدوار الفيلسوف في الغرب، مهمة وضع حد أمام تنامي السلطة والإفراط في إنتاجها وذلك كلما ازداد خطر تحول السلطة إلى تهديد. لقد كان للفيلسوف دائما صورة المضاد للاستبداد

(Dits et Ecrits, III, La philosophie analytique de la politique, p.537).

ويرى فوكو أنه منذ الاغريق كان ثمة ثلاث إمكانيات للفيلسوف المضاد للاستبداد: 1- الفيلسوف المشرع للقوانين مثال "صولون" (Solon) 2- الفيلسوف مستشار الأمير (مثال أفلاطون في علاقته بالمستبد "دني" (Deny) 3- السخرية من السلطة (الكلبيون مثلا). في كل هذه الحالات كان للفيلسوف دور تعديلي للسلطة.

² Foucault, Dits et Ecrits, III, La philosophie analytique de la politique, p.540

³ Foucault, Dits et Ecrits, II, Préface, p.196

⁴ Ibid

⁵ Ibid

⁶ Foucault, Dits et Ecrits, II, Par-delà le bien et le mal, p.233

⁷ Ibid, p.115

وهي "لا تنتظر فرصة قادمة قد تكون ثورة أو تحرراً أو تباشيراً للطبقات أو اضمحلالاً للدولة... إنها مقاومة تنزل صلب تاريخ راهن"¹. ومن ثمة فإنها مقاومة تهدف إلى إحداث تحولات جزئية ودقيقة وفي مجالات محددة مثل السجون والمستشفيات والجامعات... الخ. وليس الهدف منها تقديم برامج عامة حول إنسانية جديدة حرة بإطلاق. "ينبغي لأنطولوجيا نحن التاريخية أن تعرض عن كل هذه المشاريع التي تدعى الشمولية والراديكالية. إذ نعرف في الواقع وبالتجربة أن ادعاء الإفلات من نسق راهن بغاية تقديم برامج عامة حول مجتمع آخر وطريقة أخرى في التفكير وثقافة أخرى ورؤية أخرى للعالم، كل ذلك لم يفض في الواقع سوى إلى مواصلة أكثر العادات خطورة. إنني أفضل التحولات الدقيقة جداً تلك التي أمكن لها أن تحدث... في بعض المجالات التي تخص أنماط حياتنا وتفكيرنا كما تخص علاقات السلطة والعلاقات بين الجنسين وطريقة إدراكنا للجنون أو المرض. إنني أفضل هذه التحولات وإن كانت جزئية... على الوعود بإنسان جديد. تلك الوعود التي ما انفكت أسوأ الانساق الفلسفية تكررهما طيلة القرن العشرين"².

والحقيقة أن فوكو نفسه قد انخرط في هذا الضرب من المقاومة في مجالات مختلفة تمارس فيها السلطة وفي علاقة بفئات محددة تمارس عليها السلطة كالسجناء والمهاجرين والطلبة³.

أ- السجناء: أعلن فوكو في شهر فيفري من سنة 1971 عن إحداث "مجموعة الإعلام حول السجون" والتي اتخذت من منزله بباريس مقراً لها. وقد نجح ناشطون ضمن هذه المجموعة في شهر أفريل من نفس السنة في إدخال استبيانات إلى الكثير من سجون فرنسا أمكن بواسطتها

¹ Foucault, *Dits et Ecrits*, III, *La philosophie analytique de la politique*, p.546

² Foucault, *Dits et Ecrits*, IV, *Qu'est-ce que les Lumières ?*, p.575

³ اعتمدنا في هذا المجال الكرونولوجيا التي عرضها المشرفان على نشر أعمال فوكو *Dits et Ecrits*.

وهي *Michel Foucault, Dits et Ecrits*, François Ewald et Daniel Defert. انظر: *Paris, Gallimard, 1994, pp.13-65*

الحصول على كم هائل من المعلومات حول وضعية المساجين وضروب الانتهاكات التي تمارس عليهم داخل السجون. وقد أشرف فوكو في شهر نوفمبر من سنة 1971 على تجمع عام حول وضعية السجناء بفرنسا تم خلاله عرض فيلم تم تصويره بسجني "صولداد" (Soledad) و"سان كانتان" (San Quentin) وشفع العرض بشهادات لمساجين سابقين وعائلات معتقلين. وبعد شهر شارك في مظاهرة دعت لها عائلات المساجين ونظمتها "مجموعة الإعلام حول السجون" أمام وزارة العدل الفرنسية وذلك احتجاجا على أشكال العقاب الجماعي للمساجين بسجن "كلارفو" (Clairvaux). وخلال شهر جانفي من سنة 1972 نظم فوكو اعتصاما بهو وزارة العدل لتبليغ مطالب المساجين وأهمها حق الحصول على المعلومة والحماية القضائية للمعتقلين داخل السجون. وقد شارك في هذا الاعتصام قرابة الأربعين شخصا من بينهم سارتر ودولوز.

ب - المهاجرون: شارك فوكو في عضوية لجنة "جلالي". وهي لجنة أوكلت لها مهمة التحقيق في مقتل المهاجر الجزائري جلال بن علي يوم 27 أكتوبر من سنة 1971 من قبل حارس عمارة بالحي الباريسي ب "قوت دور" (Goutte-d'or). لقد تمثلت مهمة اللجنة في النظر ما إذا كان مقتل المهاجر الجزائري جريمة عادية أم جريمة عنصرية منظمة؟ وقد عرف الحي الذي قتل فيه جلال بن علي احتجاجات نظمتها خاصة مجموعة اليسار البروليتاري تزامنت مع مظاهرات للمهاجرين تحت شعار "سننتقم لجلالي". إن السؤال الأساسي الذي طرح في ذلك الوقت هو هل ينبغي أن تكون الإجابة عن مقتل جلال عسكريا كما يرى اليسار الماوي أم إجابة ديمقراطية؟ لقد عبر فوكو عن رفضه للحل العسكري. كما أن اليسار البروليتاري حسم أمره في شهر نوفمبر من سنة 1971 عندما اختار الطريقة الديمقراطية أي نهج الاحتجاج السلمي. وهو ما عبر عنه نداء المثقفين الفرنسيين للعمال العرب. وكان فوكو من بين الموقعين على هذا النداء إلى جانب سارتر. وقد شارك فوكو أيضا في شهر ديسمبر 1972 في المظاهرات التي نظمت احتجاجا على اغتيال محمد

ذياب وهو عامل مهاجر. وقد تم إيقاف فوكو لساعات بمقر أمن "بوجون" (Beaujon).

ج- الطلبة: ساند فوكو تحركات الطلبة التونسيين خلال الفترة التي قضها بتونس بداية من شهر سبتمبر 1966 بهدف تدريس الفلسفة بالجامعة التونسية. لقد شهدت العاصمة تونس من يوم 5 إلى يوم 10 جوان 1967 مظاهرات مناهضة للامبريالية وللسفارة الأمريكية بتونس بمناسبة حرب الأيام الستة. وقد سجلت إيقافات عديدة في صفوف المعارضين وخاصة منهم الطلبة. وكان الطلبة الذين لم تشملهم الاعتقالات ينظمون اجتماعاتهم بمنزل فوكو بسيدي بوسعيد، إحدى الضواحي الشمالية للعاصمة تونس. وقد شهدت الجامعة التونسية من يوم 15 إلى يوم 19 مارس 1966 العديد من المظاهرات بقصد تحرير الطلبة المعتقلين منذ السنة السابقة. وأوقفت الشرطة قادة الطلبة وخاصة الناشطين ضمن مجموعة "برسبكتيف". وتم تعذيب بعضهم ووجهت لهم تهمة المساس بأمن الدولة. وقد كان الطلبة الذين لم تشملهم الإيقافات يعدون مناشيرهم بمحل إقامة فوكو الذي التقى الرئيس بورقيبة وسفير فرنسا بتونس حينها من أجل تحرير المعتقلين ولكنه لم ينجح في ذلك. وخلال شهر جوان من سنة 1966 كانت الشرطة تضايق فوكو باستمرار من أجل حمله على مغادرة تونس وخاصة بعد إندلاع أحداث ماي 68 بباريس وتوسعها بكامل فرنسا. وقد غادر فوكو تونس في نفس السنة ولكنه عاد إليها في شهر ماي من سنة 1971 بمناسبة دعوته من قبل نادي "الطاهر الحداد". وقد حاول التدخل دون جدوى لفائدة المناضلين المعتقلين منذ سنة 1968 والذين أودعوا السجن بمقتضى أحكام صدرت عن محكمة أمن الدولة المحدثّة في شهر جويلية من سنة 1968. وقد كتب فوكو بعد عودته الى باريس ما يلي: "عند ما كنت بتونس رأيت أناسا يسجنون لدواعي سياسية وقد كان لذلك عظيم الأثر في نفسي"¹.

¹ Foucault, *Dits et Ecrits, IV, Vérité, pouvoir et soi*, p.779

تلك بعض الأمثلة عن انخراط فوكو في مقاومة السلطة. إن مقصد المقاومة، مقاومة السلطة ذاتها، أي مقاومة وجود سلطة تمارس. " يتعلق الأمر في أشكال المقاومة هذه بواقعة وجود سلطة ما تمارس، وأن أمر ممارستها شيء لا يحتمل"¹. ذلك هو معنى مقاومة السلطة، فهل نسمي ذلك التزاماً؟

IV - المثقف والالتزام

إذا ما عدنا إلى معجم لالاند الفلسفي نقرأ ما يلي: "التزام، ملتزم، ألفاظ من اللغة المتداولة غدت كثيرة الاستخدام في الفلسفة منذ بضع سنوات. الفكر الملتزم هو -من جهة- الفكر الذي يأخذ مأخذ الجد الاستتباع الأخلاقية والاجتماعية التي يتضمنها. وهو -من جهة أخرى- الفكر الذي يعترف بضرورة أن يكون وفيما لمشروع تبني سابقاً مبدأه (وغالباً ما يكون هذا المشروع جماعياً). ومن ثمة فإن الالتزام يتعارض في الحالتين مع إرادة الحياة ذهنياً في برج عاجي"².

إذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذا الاستنتاج الأخير للالاند أمكننا الحديث عن "التزام" لدى فوكو بمعنى "عدم الحياة في برج عاجي والانشغال بالحاضر وتشخيصه ومقاومة ضروب السلطة فيه. ولكن إذا ما أخذنا فكرة الالتزام بمعنى الانخراط في مشروع جماعي على جهة تحقيق مجتمع الحرية والعدالة فإن لفظ الالتزام لا ينطبق على فوكو بقدر ما ينطبق على النزعة الإنسانية خاصة في حدها الماركسي والوجودي السارتري. ليس لفوكو أوهام المجتمع العادل والحر بإطلاق. كل ما يمكن فعله مواجهة ضروب الهيمنة في مجالات دقيقة ومحددة. ذلك ما يفسر قول فوكو: "إن فكرة الالتزام شديدة الارتباط بضرب من ضروب الفلسفة الوجودية حتى قبلها على علامتها"³. لا يتعلق الأمر إذن بالالتزام بمشاريع كونية وعامة بقدر ما يتعلق بالالتزام بأداء أدوار دقيقة وجزئية في مستوى علاقات السلطة.

¹ Foucault, *Dits et Ecrits*, III, *La philosophie analytique de la politique*, p.5465

² A. Lalande, *Vocabulaire technique et critique de la philosophie*, Paris, P.U.F., 1994

³ Foucault, *Dits et Ecrits*, I, *Interview avec Michel Foucault*, p.655

وفضلا عن ذلك فإن ما يعيبه فوكو على نظرية الالتزام السارترية عدم قدرتها على الربط بين ما هو نظري وما هو عملي سياسي. لقد بالغت في الانشغال بالفعل السياسي ولم توفر له الأساس النظري. ويعني البحث فيما هو نظري البحث في تقنيات السلطة والتحقيق في مسارات تكونها وكيفية عملها. لذلك يعتبر فوكو "أن تحليلا نظريا ودقيقا للطريقة التي تعمل وفقها البنى الاقتصادية والسياسية والإيديولوجية هو أكثر الشروط ضرورة بالنسبة للفعل السياسي نفسه"¹. لقد قيل لفوكو ذات يوم في إطار مقابلة معه للرد على سارتر: "إن فلسفة مثل الوجودية تشجع المرء بشكل ما على الالتزام والفعل. وثمة من يعيب عليك موقفا مضادا لذلك". فأجاب فوكو: "أجل يعاب علي ذلك، ومن الطبيعي أن يفعلوا، ولكن لنقل مرة أخرى أن الاختلاف لا يكمن في كوننا فصلنا السياسي عن النظري بل على العكس من ذلك نحن نرفض هذه السياسات التي ينتهجها الجهل الثاقب وهي ذات السياسات لما سمي التزاما"².

والحقيقة أن الفرق بين سارتر وفوكو هو فرق بين "المثقف الكوني" و"المثقف النوعي" بتعبير فوكو نفسه. إن المثقف الكوني هو ذلك الذي يشتغل "بالمثالي" و"العادل والحقيقي باطلاق". ولقد "كان هذا المثقف مجسدا إلى حد الان وبامتياز في صورة المؤلف. فالمؤلف هو الضمير الكوني والذات الحرة"³. وهو ممثل على وجه التحديد في المؤلف اليساري. "لفترة طويلة تكلم المثقف المسعى يساريا وقد عرف بامتلاك حق الكلام كسيد للحقيقة والعدل. لقد كان الناس يصغون إليه أو هو ادعى أنهم يصغون إليه كمثل للكونية. فأن يكون المرء مثقفا هو أن يكون تقريبا ضمير الجميع"⁴. ولكن "منذ سنوات عديدة لم يعد ثمة من يطلب من المثقف أن يقوم بهذا الدور. لقد تم ارساء نمط جديد من العلاقة بين النظرية والممارسة. لقد اكتسب المثقفون عادة الانشغال، لا بمجال "الكوني"

¹ Foucault, *Dits et Ecrits, I, Interview avec Michel Foucault*, p.655

² Foucault, *Dits et Ecrits, I, Foucault répond à Sartre*, p.655

³ Foucault, *Dits et Ecrits, III, La fonction politique de l'intellectuel*, p.110

⁴ *Ibid*, p.109

و"المثالي" و"العادل والحقيقي بالنسبة للجميع"، بل بقطاعات محددة وفي مجالات دقيقة تحدد مواقفهم إما ظروف العمل أو ظروف حياتهم (كالسكن، المستشفى، المحتجز، المخبر، الجامعة، الروابط العائلية أو العلاقات الجنسية). لقد اكتسب المثقفون بذلك وعيا ملموسا أكثر ووعيا مباشرا بضرور الصراع. وقد صادفوا هناك مشكلات خصوصية وليست كونية¹. ذلك ما أسميه "المثقف النوعي في مقابل المثقف الكوني"².

خاتمة

تلك هي الدلالة العميقة لما يسميه فوكو "أنطولوجيا الحاضر" بماهي قول فلسفي نقدي في شكل وجودنا اليوم. إنها تشخيص للراهن ومقاومة لضروب السلطة فيه. ولكن ثمة عوائق يمكن أن تعرقل عمل الفيلسوف أو المثقف النوعي. إذ" يصطدم المثقف النوعي بعوائق ويتعرض لمخاطر كخطر الانخراط في مقاومة عابرة أو مطالب قطاعية أو أن يكون موضوع توظيف من قبل أحزاب سياسية أو هيكل نقابية تقود صراعات قطاعية"³. ولعل المفارقة تكمن في أن فوكو نفسه بما هو مثقف خصوصي كان عرضة لأحد هذه المخاطر وهو الانخراط في مقاومة عابرة أو هو بالأحرى سوء تقدير لخلفيات المقاومة ومقاصدها. لقد نعت فوكو ما آل إليه وضع الفكر الثوري اليساري في الأنظمة الاشتراكية ب الكوميديا الحزينة. ولكننا نعتقد أن بعض أشكال المقاومة التي انخرط فيها فوكو نفسه - أو ما شبه له أنه مقاومة - هي التي ينبغي أن تنعت ب الكوميديا الحزينة. يتعلق الأمر بالثورة الإيرانية التي ساندها فوكو .

¹ Foucault, *Dits et Ecrits*, III, *La fonction politique de l'intellectuel*, p.110

² *Ibid*

يرى فوكو أن دور المثقف لا يقتل في قيادة أشكال المقاومة بقدر ما يمكن في تقديم أدوار التحليل والدعم: "على المثقف إذن ألا يلعب دور من يقوم بتقديم النصح. إن تحديد المشروع والأساليب والأهداف التي يجب تعيينها هو من مشمولات الذين يكافون. إن ما يمكن للمثقف فعله هو تقديم وسائل التحليل وأن يضطلع حاليا بدور المؤرخ" (Foucault, *Dits et Ecrits*, III, *Pouvoir et Savoir*, p.759) يتعلق الأمر إذن بتقديم رؤية للحاضر تسمح بتحديد كيفية تشكل علاقات السلطة تاريخيا عبر مساراتها الطويلة وتحديد منبتها ومواطن الهشاشة والقوة فيها. إن مهمة الفيلسوف بما هو مثقف خصوصي تكمن في إنجاز جرد توبوغرافي وجيولوجي لأرض المعركة وذلك هو دور المؤرخ" (نفس المرجع)

³ Foucault, *Dits et Ecrits*, III, *La fonction politique de l'intellectuel*, p.111

لقد حل فوكو بطهران في شهر سبتمبر من سنة 1978 وذلك عقب مجزرة "جاله". حيث فتحت قوات الشاه النار على المتظاهرين العزل. وقد التقى بمدينة "قم" العاصمة الدينية لإيران بأية الله شريعة مداري أحد الوجوه الدينية الشيعية الإيرانية ذات التوجه الليبرالي. كما التقى ممثلين عدبيين لمختلف التيارات السياسية بإيران. وقد زار فوكو إيران للمرة الثانية في شهر نوفمبر من سنة 1978 وقد كان منشغلا بما يمكن أن يوجه مجموعات ثورية خارج دائرة الماركسية. وقد سافر لعبدان التي كانت تشهد اضطرابا لعمال مصافي النفط والتقى فدائين عبروا له عما يشدهم للخميني¹. عاد الخميني الى إيران يوم 1 فيفري سنة 1979 عندما كان فوكو بباريس. وقد طلب بني صدر من فوكو اصطحابه الى إيران فرفض. ولم يلتق الخميني مطلقا. وسرعان ما شرعت مليشيات الخميني في تصفية المعارضين للنظام. فهوجم فوكو بشراسة من قبل صحيفة *le matin* لمساندته الثورة الإيرانية. وتنازلت الهجمات عليه. وقد تأثر فوكو كثيرا بتلك الهجمات فوجه رسالة مفتوحة الى رئيس الحكومة الإيرانية مهدي بزرقان في شهر أفريل من سنة 1979 عن طريق مجلة *Le Nouvel Observateur* وهي رسالة أدان فيها جرائم النظام الإيراني².

هي إذن ذات الكوميديا الحزينة وإن كان ثمة في تقديرنا فرق بين فكر ثوري يساري تنويري ما فتئ يتعلم من عثراته و"شيء" شبه للناس ولأصحابه أنه فكر ولكننا لم نفتأ نكتشف وجوه ظلام فيه لا قعر لها.

¹ Michel Foucault, *Dits et Ecrits, chronologie*, p.55

² *Ibid*, p.56